القرآن كله شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ومزيد خسار للظالمين، ولا تعني ﴿مِنَ﴾ تبعيضاً في القرآن، بل هو بيان لكيان القرآن أياً كان كما ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[١] فالرجس هو طبيعة الأوثان، والشفاء والرحمة هما طبيعة القرآن ولكن لمن؟ «للمؤمنين»! أترى إذا اختص القرآن في شفائه ورحمته بالمؤمنين فما بال غيرهم يؤنَّبون ويعذبون ولا يشملهم هدى القرآن؟ رغم إنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٢]! ثم الشفاء والرحمة حاصلتان للمؤمنين بالإيمان، وغيرهم يحتاجونها حتى يحصل الإيمان! والظلم داءٌ عضالٌ فكيف لا يشفيه القرآن.

«المؤمنين» هناك «المتقين» في ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣] تعني من يبتغي الإيمان أصلاً أو مزيداً، ويتقى خلاف الإيمان أصلاً أو مزيداً، فالكافر أياً كان - إذا فتش عن الإيمان، وكفره قصور وشك مقدس ولمّا يصل إلى برهان الإيمان - هو هنا من «المؤمنين» فإنه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤].

وأما المتعنت المتعمد في كفره وظلمه فهو الظالم الذي لا يزيده القرآن إلّا خساراً، وإن كان منسلكاً في سلك المسلمين كالمنافقين، أم والمؤمنين الضعفاء ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٥] فالقرآن هو منبع الشفاء والرحمة بجاذب الإيمان ممن نظفت فطرته ولطفت سريرته، وإن لم يصل قبل الإمعان في القرآن إلى واقع الإيمان.

والظالم نفسه والظالم آيات ربه، الذي غربت فطرته لا يزيده هذا القرآن

(١) سورة الحج، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

إلّا خساراً ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[١] ليست الشفاء إلّا عن مرض أياً كان في الروح أم في البدن، ولا الرحمة إلّا مزيد قوة بعد نقاهة، وليستا إلّا للذين يؤمنون: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٢] مهما خوطب بهما الناس أجمعون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] فالشفاء هنا وهناك هي الشفاء، تخلية عن الأمراض، والرحمة هي الموعظة والهدى تحلية وتجلية للأرواح، وهي مزيد سلامة للأبدان! إن القرآن شفاء ورحمة لحد سمي شفاءً ورحمة، شفاء في مثلث الآيات ورحمة في عشرات: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤] ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥] ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٦] فـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هنا وهناك تلمح إلى معنى «المؤمنين» في آية الشفاء والرحمة، كما بيناه.

فهو ﴿شِفَآءٌ﴾ عن أمراض الفطرة والعقل، ومضايق الصدر وعمى القلب، عن ظلمات الأفكار أم ماذا؟ وعن أمراض الأبدان ما كان لها شفاءٌ[٧] لمن دخل مستشفى القرآن، فإنه «الشفاء الأشفى»... «من استشفى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.
(٦) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٧) نور الثقلين ٣: ٣١٣ ح ٤١٥ طب الأئمة قال أبو عبد الله عليه السلام: ما اشتكى أحدٌ من المؤمنين شكاية قط وقال بإخلاص نية ومسح موضع العلة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلا عوفي من تلك العلة أية علة كانت ومصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبإسناده إلى عبد الله بن سنان عن أبي =

به شفاه الله»[١] «شفاء لا تخشى اسقامه»[٢]: «شفاءٌ» ومن ثم «رحمة» فـ «إنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياءٌ من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم»[٣]. «وإنما الشفاء في علم القرآن»[٤] «للأرواح والأبدان، للمؤمنين بدرجاتهم، عالية في أئمة الهدى»[٥] ونازلة لمن ذاق طعماً من الإيمان[٦]، فالشفاء والرحمة لكلٍّ قدر الإيمان ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٧]:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾:

تنديد بنسيان الإنسان نعمة ربه حين ينعم عليه، ويأسه حين يمسّه الشر «والدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» ولكن ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[٨]!

= عبد الله عليه السلام قال: يا بن سنان لا بأس بالرقية والعوذة والنشرة إذا كانت من القرآن ومن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله وهل شيء أبلغ في هذه الأشياء من القرآن أليس الله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسرَاء: ٨٢].

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة مفصلة حول القرآن راجع ج ٣٠ المقدمة من الفرقان.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢ - راجع مقدمة الفرقان ج ٣٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢١٣ في ٤١٢ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وإنما الشفاء في علم القرآن لقوله: تنزّل من القرآن ما هو شفاء - للناس ورحمة لأهله لا شك فيه ولا مرية وأهله أئمة الهدى الذين قال الله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: ٣٢].

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر بنفس السند عنه عليه السلام قال: إنما الشفاء في علم القرآن لقوله: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسرَاء: ٨٢] لأهله لا شك فيه ولا مرية اهـ.

(٧) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٨) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

فحين يُترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة يعيش دهره خساراً في يوميه: حيث يبطر إذا أنعم الله عليه فاعرض ونأى بجانبه، ويئس حين يمسه الشر، فمن طبيعة النعمة أنها تُطغى وتُبطر ما لم يذكر المنعَم واهبها فيحمد ويشكر، والشر والضر يقنط ويئيس ما لم يرجو الله ويأمل، وهنالك تتجلى القيمة القمة لشفاء القرآن ورحمته، أو خساره ونقمته، وكل يعمل على شاكلته.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ يا رسول الهدى ﴿كُلٌّ﴾ من المؤمن والظالم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ متبنياً كلما يعمله من عمل الإيمان واللّاإيمان على شاكلته الخاصة به ﴿فَرَبُّكُمْ﴾: أنتم العاملون، الخالق المدبر لكم ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ حيث الرب يعلم عمل المربوب بشاكلته!

ترى وما هي شاكلة كل عامل يتبناها في عمله تقوى أو طغوى؟ مع العلم أنها ليست الشاكلة الصورية؟ الشاكلة صفة لموصوف محذوف فهل هي فطرته؟ وهي لا تختلف فيمن فُطِر عليها! ولا تتخلف عما هي عليها! ولا تَتْبعها الأعمال إلّا لمن لم يُحجب عنها! ثم ولا تكفي حكماً لكل صغيرة وكبيرة، فإن لها أحكاماً عامة يشترك فيها كل المفطورين عليها!

أم هي العقلية والفكرة؟ وهما على اختلافهما بين العاملين، لا تكفيان تبنياً للأعمال، فكثير هؤلاء الذين يعملون أعمالاً خلاف فِكَرهم وعقلياتهم!

أم هي مطلق العقيدة التي تتبناها العقلية والفكرة؟ ورب معتقد بشيء يخالفه في قوله أو عمله أم فيهما؟!

أم هي النية التي تتبنى العقيدة، إن صالحة فصالحة وإن طالحة فطالحة؟ وكأنها هي «فالنية هي العمل» حيث العامل الأخير لكل عمل هو النية التي تستتبع الإرادة ثم العمل!

ثم ترى النية الحاصلة من عقيدة وهي حصيلة العقلية والفكرة، هل تنتهي إلى سجية علينية أو سجينية هي لزام كل إنسان، إذاً فهل الشاكلة

الأصلية لكل عامل، والنية وعواملها هي كلها حصيلة تلك السجية، دون تدخل لإرادة العامل؟ وهو جبر في الأعمال التكليفية ويخالف العقل والنقل وحديث «الشقي من شقي في بطن امه والسعيد من سعد في بطن أمه» مفسراً بعلم الله، فإنه يعلم من سوف يشقى ويسعد وهو في بطن أمه، فليست السجية المسيِّرة هي الشاكلة، وإنما النية الميسرة وهي حصيلة شاكلة العقيدة الحاصلة عن العقلية والفكرة، فإن ابتدأت هذه من الفطرة غير المحجوبة وتمشت مع الوحي أنتجت الأعمال الصالحة، وإن تخلّفت بداية في سيرها أنتجت الطالحة، وإن كانت بين ذلك عواناً خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فالنية الصالحة هي التي تنبع من الإيمان وتوافق سنة الله كما يروى: «لا قول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بالنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة»(١).

فنية كل إنسان على جذورها وفروعها هي شاكلة الإنسان وماهيته حيث تشاكل عمله ويشاكلها عمله، فإنها حصيلة فعلية لطاقاته الروحية كلها، إذاً فالإنسان هو النية كما «إن النية هي العمل»(٢) فـ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» وقد عبرت عنها بالشاكلة لكي تشملها وكل ما تتبناه النية وتتبناها في العمل.

ولأن النية هي النبعة الأصلية فالحق يقال «نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله» فللإنسان سبيلان سبيل الهدى وسبيل الردى ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: شاكلة، فالسبيل هي الطريقة الشاكلة هدًى أو ضلالة، وما العمل إلّا صورة بيّنة عن سيرة وسريرة خفية، وهي هي الصورة الانسانية أو البهيمية! كما النية هي شاكلة العمل.

---

(١) الكافي بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٤ ح ٢١٧ في أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: النية أفضل من العمل ألا وأن النية هي العمل ثم تلا قوله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسرَاء: ٨٤]. يعني على نيته.

وليست الجزاء إلّا بالعمل اللّهم إلّا في النية الحسنة ولمّا تصل إلى العمل أم لا يصل عذراً، فلا عقوبة على النية السيئة خلاف ما يروى[١] اللهم إلّا على العقائد السيئة فإنها من أعمال القلوب.

ولأن الآية تأتي بعد الإيمان والظلم اللّاإيمان المختلفان فيمن وُجِّه إليهم القرآن، فليكونا عملاً يستتبع الشفاء والرحمة أو الشقاء والخسار والزحمة، عملاً يتبنى السريرة النية.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

نجد الروح في سائر القرآن - أي روح كان - تذكر في واحد وعشرين موضعاً، يجمعها معنوياً: ما به الحياة، على مختلف درجات الحياة ومجالاتها، من روح الإنسان: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢] [٣] وروح الإيمان: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾[٤] وروح الوحي أياً كان: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[٥] ﴿يُنَزِّلُ

(١) نور الثقلين ٣: ٢١٤ ح ٤١٨ علي بن إبراهيم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن أحمد بن يونس عن أبي هاشم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ٨٤].
أقول: قد فصلنا البحث عن الخلود وحدوده في بابه أوائل هذه السورة وفي النبأ، وهنا أقول: ليس المخلدون في النار كلهم على هذه النية ولا المخلدون في الجنة، والآيات الحاصرة الجزاء بالعمل تنافي العقوبة على النية، وأما الثواب على النية فمن فضل الله!.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٣) كما وفي: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: ٢٩، وص: ٧٢].

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٥) سورة غافر، الآية: ١٥.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[١] من كتاب سماوي وروح قدسي وقد يخص روح القرآن والروح القدسي لرسول القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٢] أم روح القدس بوجه عام: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ...﴾[٣] ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[٤] والروح المتنزل مع الملائكة ليلة القدر والقائم والعارج معهم يوم القيامة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا...﴾[٥] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾[٦] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ...﴾[٧].

فالروح - إذاً - هو ما به حياة إنسانية - إيمانية - حياة الوحي والروح القدسي، أم حياة منفصلة كالروح الأمين والروح زعيم الملائكة، فالروح القدسي والوحي هما روح الأرواح المتصلة كما الأخيران هما روح الأرواح المنفصلة، مهما كان قبل الخمسة روح النبات وروح الحيوان.

وآية الروح - هذه - أعم آياتها تجرداً عن قيود، وأهمها جواباً عن كيانه أياً كان، فهي الآية الأم دلالة ومدلولاً، وإن كان الروح القدسي وروح القرآن هما القدر المعلوم المتيقن هنا حيث احتفت بـ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ...﴾ و: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾! ولكنه لا يخص روح القرآن حيث الفصيح إذاً «عن روح القرآن - أو عن وحي القرآن» وإنما عناه كما عنى سائر الأرواح من نباتية وإلى قدسية في القمة، متصلة ومنفصلة!

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ المضارع، رغم مضي السؤال تلمح بالأسئلة المستقبلة

(١) سورة النحل، الآية: ٢.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٥) سورة القدر، الآية: ٤.
(٦) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٧) سورة المعراج، الآية: ٤.

طول سني الرسالة الإسلامية، إضافة إلى الأسئلة الماضية[١]، من أي كان في أي زمان وعن أي من الأرواح ﴿عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ كجنس يستغرق الأرواح كلها، ومن أية ناحية حول الروح.

فكل سؤال في العهدين: المكي والمدني حول الروح أياً كان في الفترة الرسالية زمن الرسول، وكل سؤال يطرح في عهد الإمامة أو يطرح زمن الغيبة الكبرى وإلى يوم الدين، تشمله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ كما و﴿عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ تشمل الأرواح بجنباتها، أسئلة تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي ومستقبله، فليكن الجواب: ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ جواباً عن كل سؤال طُرح أو يُطرح حول أي من الأرواح: هل هي مادية أم مجردة؟ أزلية أم حادثة؟ وعلى حدوثها فمن ذا الذي أحدثها وما هي ذاتها وكُنهها؟

و﴿أَمۡرِ رَبِّي﴾ هو بين الشيء والفعل ومقابل النهي تكوينياً أو تشريعياً، ولا معنى لـ «من شيء ربي»! فهل شيء ذاته؟ فإشراك! أم من شيء غيره؟ فلماذا الشيء بدل الفعل!:

ولا يعني «من فعل ربي» حيث الفعل قد يكون بحاجة إلى تدرّج ومعدات قد لا تحصل وليس هكذا فعل ربي، ولا من أمره التشريعي وإن كان هو الوحي، إذ يصدر بأمر تكويني مهما حمل تشريعاً أم سواه، إذاً فهو

(١) الدر المنثور ٤: ١٩٩ - أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه فسألوه فقالوا: يا محمد! ما الروح؟ فما زال يتوكأ على العسيب وظننت أنه يوحى إليه فأنزل الله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] وأخرجه مثله جماعة من هؤلاء عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم بزيادة قالوا: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فأنزل الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].

الأمر التكويني بمجرد الإرادة بتدرّج أم دون تدرج، فمن أفعاله تعالى ما فيه تدرّج لحكمة تتطلبه كتبديل مادة إلى أخرى، ومنها ما لا تدرُّج فيه كخلق المادة الأولية لا من شيء، ولا يتصور في إبداعها التدرج، وكخلق الروح الانساني إذ يُخلق بعد كمال البدن حصيلةً وسلالةً عن البدن دون تدرج، مهما كان من الأرواح الأخرى ما فيها التدرج كروح القرآن المفصل، وأما روح العصمة القدسية وروح الإيمان فلا تدرج فيها إلّا في مراتبها، و﴿أَمۡرِ رَبِّي﴾ الإرادة التكوينية تشمل المتدرجة وغيرها سواء، فبأمره وإرادته تحصل الأرواح نباتية وحيوانية وإنسانية وإيمانية وقدسية متصلة ومنفصلة وروح الوحي، دون أن يكون للخلق شأن فيها إلا ظرفاً يقبل منزلاً لهذا الأمر، دون أن يكون الأمر لزامه إلّا ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾! فالروح أياً كان هو من شؤون ربوبيته الخاصة، مهما كان الجسم متطوراً بفعل الخلق حسب طاقته! وتلكم الأسئلة الأربعة مضروبة في الأرواح السبعة تصبح ثمانية وعشرين سؤالاً ثم و﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ إجابة جازمة عما سوى أسئلة الكنه والذات، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعمها وعدم الإجابة عن الذات.

فعن روح القرآن: الوحي - هل إن كلام الله حادث أو قديم؟ إنه ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وكل أمر ربي حادث فإنَّه فعله دون ذاته وصفاته.

وهل إنه نتيجة تكامل العقل، فهو - إذاً - يوحي إلى صاحبه؟ أم هو عند تمامه وكماله يوحى إليه من ربه، فهو هناك «من أمرنا» وهنا نتيجة حاصلة عن «أمرنا» وفيهما هو من أمر الإنسان مهما اختلفا، والجواب ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ من فعله وإرادته مهما يطلب ظرفاً يناسبه هو كمال العقل وتخلص القلب عن كل كدرة وظلمة، فهو من فضل ربي بداية وعلى كدح مني، ثم ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ نهاية:

ثم وروح الإنسان حادث بإرادة ربي - إذاً - فمادية، حيث الأمر الفعل

من ربي - وهو خلقه - لا يشبهه تجرداً إلهياً، فليس إلّا مادياً مهما كان رقيقاً كأنه تجردي.

الروح مخلوق كما الجسم مخلوق وهما من أصل المادة على اختلافها في الشفافيّة والكُدرة، ولكنما الجسم في غير المادة الأوّلية يُخلق تبدُّلاً على تدرُّج اللّهم إلّا في خوارق العادات كقلب العصى حية تسعى، وأما الروح فهو مخلوق كلمح البصر، اللّهم إلّا في روح الوحي المفصل كتفصيل الكتاب، وسائر الأرواح مخلوقة لمح البصر أو هو أقرب، ولذلك يقيد إلقاءه بـ «من أمره» ووحيه كروح القدس المتصل بقلوب المعصومين «من أمرنا».

لا يعني الأمر في الروح إيجاد المجرد مقابل الخلق إيجاداً للمادة وكما تقوّلوا في ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] فإنه أمر التدبير بعد الخلق، فكما له خلق الكون بروحه وجسمه، كذلك أمر الكون بتدبيره، ويشهد لذلك الآية نفسها ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] فإن استواءه على عرش الخلق بروحه وجسمه هو أمر التدبير، فكما له أمر التكوين كذلك له التدبير دونما ندٍّ له في أي الأمرين.

ولو كان الأمر هو إيجاد المجردات لم يخص تدبيره بالأمر في ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[٣] ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[٤] بل عمّه والخلق!.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣١.